مؤلفات إسلامية أثرت في الفكر العالمي

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

طريق النور من المشرق إلى المغرب.

وهي كلمة من قبيل تحصيل الحاصل أو اللعب بالألفاظ، إذا أريد بها النور الذي ينبعث من الشمس أو من كواكب السماء، فإنما يطلع الكوكب من مطلعه ويغرب من مغربه على كل حال.

ولكنها حقيقة التاريخ الكبرى إذا أريد بها نور الفكر أو نور الضمير، فما من حضارة من الحضارات الإنسانية الأولى، إلا وقد نشأت في المشرق ثم اتخذت طريقها إلى المغرب بعد حين.

من الشرق أخذ الغرب لغاته الآرية والطورانية، ومنه أخذ حروف الكتابة ومنه أخذ أرقام الحساب، ومنه تعلم صناعات العمران كالزراعة والنسيج والملاحة وتربية الحيوان.

ومن الشرق أخذ الغرب دياناته الحاضرة والغابرة، فقبل الديانات الكتابية كانت للغرب ديانات وثنية، وكان أهمها وأدلها على المعرفة ما تعلمه من الشرقيين، ولا تزال أسماء الأيام إلى الآن منسوبة إلى الأرباب السماوية كما عرفها البابليون الأقدمون، ولا يزال الأسبوع محسوبا كما كان يحسبه الفلكيون الشرقيون قبل ثلاثة آلاف سنة، ولا يزال اسم «أوربة» نفسه مأخوذاً من كلمة شرقية سامية قديمة بمعنى الغروب!.

والحضارة الإسلامية إحدى هذه الحضارات التي انتقلت من المشرق إلى المغرب، وهي أكبرها أثراً من جميع الوجوه، لأنها أطولها زمنا وأوسعها نطاقا وأكثرها امتدادا في بلاد القارة الأوربية.

ولقد مضى على الغرب خمسة قرون من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر، لم يعرف فيها المعرفة إلا من المؤلفات الإسلامية، ومن هذه المؤلفات عرف تراثه القديم من حكمة اليونان.

ولا نحصي كل هذه المؤلفات لأنها كثيرة متفرقة، والمعدوم اليوم منها

أكثر من الموجود . ولكننا نذكرها إجمالا ونكتفى بالاشارة إلى المعروف منها الآن .

فكتاب القانون لابن سينا ، وكتاب الحاوى للرازى ، كان عمدة الأطباء والعلماء إلى القرن السابع عشر وكانت جامعة لوفان تعتمد على هذين المرجعين فى التطبيب والعلم الطبيعى إلى ما بعد سنة ألف وستمائة . وقد ذكر جوستاف لوبون أن كتاب « التعريف لمن عجز عن التصريف » لأبى القاسم خلف بن العباس — كان مدرسة للجراحين الأوربيين جميعاً بعد القرن الرابع عشر ، وقد طبع بعد ذلك بقرن باللغة اللاتينية ، وكان الأطباء قبل ذلك يقرأونه باللغة العربية أو يستعينون على فهمه بمن يعرفها .

وليس أدل على تقدير الغرب لابن سينا — على التخصيص — من نقش صورته على جدران الكنائس واعتباره من أعلام الإنسانية فى جميع العصور .

ومؤلفات ابن رشد فيما وراء الطبيعة ، وفى العلوم الطبيعية ، لم تزل مرجعاً للعلماء إلى القرن السادس عشر ولم يزهد فيها العلماء وطلاب العلم بعد تحريمها عدة مرات .

وقد كان للمؤلفات الإسلامية أثر فى توجيه الفكر العالمى إلى نتائج عملية من أعظم النتائج فى تاريخ العالم قديمه وحديثه ، وإحدى هذه النتائج التى لا شك فيها كشف القارة الأمريكية .

ان الروايات التاريخية عن اقتحام العرب للمحيط الأطلسى ، أو بحر الظلمات كما كانوا يسمونه ، متعددة متواترة لا موجب للشك فيها ، وبعضها يذهب إلى القول بوصول الملاحين العرب إلى الشواطىء الأمريكية ، وبعضها يصف الجزر التى بلغوها وصفا يطابق المعلوم عن الجزائر الموجودة فى هذه الأيام . ومن القرائن التى يستدل بها على وصولهم إليها أن كولمبس جاء من أمريكا بذهب يخالطه النحاس على النسبة ، وبالمقدار الذى يجرى عليه خلط الذهب فى غانة الأفريقية . ولكننا على هذا كله لا نعتقد أن ملاحين من العرب وصلوا فعلا إلى أرض القارة الأمريكية ، وليس فى جميع الروايات دليل قاطع على وصولهم إليها ، والرأى الأصح أنهم حاولوا ولم يصلوا ، وان طائفة منهم هلكت فى الطريق ، وهم الذين يسمونهم بالمغررين ، من تغريرهم بأنفسهم ومخاطرتهم بالحياة .

أما الأمر الذى لا شك فيه فهو أن الفكرة التى نهضت بكولمبس إلى تلك السياسة الخالدة إنما كانت فكرة عملية مستمدة من المؤلفات الإسلامية وأجدرها بالذكر فى هذا المقام كتب الفلك والجغرافية ، فلولا اقتناع كولمبس باستدارة الأرض لما خطر له أن يصل إلى الهند من طريق الغرب ، ولم تكن فى ايطاليا وأسبانيا — يومئذ — مؤلفات تشرح هذه الفكرة غير المؤلفات الإسلامية .

كان معول الغربيين فى علم الفلك على الكتب الإسلامية ، وبقيت أسماء المنازل الفلكية ، وأسماء بعض النجوم عربية إلى هذه الأيام ، ومنها الراعى والذنب والسماهور والنسر الواقع ورجل الجبار ، وعشرات غيرها من الأسماء ، بل بقيت عندهم أسماء منقولة عن العربية مع الخطأ فى ترجمتها لأنهم صحفوها فى القراءة ، فأخطأوا فى قراءة «الفرود» بالفاء بمعنى النجوم المفردة وقرأوها القرود بالقاف وترجمت من أجل هذا الخطأ بالقرود .

وقد كان الرياضيون والجغرافيون من المسلمين يقولون كما قال المسعودى فى مروج الذهب : « ان الشمس إذا غابت فى جزائر (الأوقيانوس) كان طلوعها فى أقصى الصين ، وذلك نصف دائرة الأرض » .

وكانت كتب الادريسى شائعة فى المغرب ، وكان اسم الخريطة نفسه مأخوذاً من العربية ، لأنهم كانوا يرسمون المصورات الجغرافية على قطعة يخرطونها من الجلد ، وتسمى من أجل ذلك بالخريطة ، وكان الجلد — ولا يزال — يسمى « بالموروكو » نسبة إلى مراكش التى تصنع فيها تلك الجلود .

فإذا حسبت آثار المؤلفات الإسلامية فى الفكر العالمى ، وجب أن يكون هذا الأثر فى مقدمتها ، لأنه الأثر الذى كشف الكرة الأرضية لسكانها ، ودلهم على جانب منها يسمى الآن بالعالم الجديد .

وللحكيم الإسلامى — محيى الدين ابن عربى — أثر كبير فى التصوف العربى ، وفى فهم الغربيين لطبائع العالم الآخر ، وأكبر تلاميذه من المتصوفة « اكهارت » الألمانى ، وقد نشأ بعد محيى الدين بنحو قرن من الزمان .

أما آثار الغزالى فى حكمة الغرب فقد بدأت بمذهب « دافيد هيوم » فى مسألة الأسباب . وانتهت إلى المذهب العلمى المتفق عليه فى العصر الحاضر ، وخلاصته أن الأسباب ظواهر تقترن

بالنتائج وتظهر معها على التكرار ، ولكنها لا توجدها ، ولا تتوقف النتائج عليها لزاما بحكم التفكير الصحيح

ومن المؤلفات الهينة جداً علينا كتاب يقرأه الألوف من الصغار والكبار ، ويقبل عليه الغربيون فى العصر الحديث إقبالا يفوق كل إقبال على أمثاله وذلك هو كتاب « ألف ليلة وليلة » المشهور .

هذا الكتاب كان له أثر هائل فى انقلاب النهضة الايطالية ، ثم النهضة الأوربية ، وكان له شأن كبير فى حركات الإصلاح بين الدعاة الدينيين .

وإنما حدث منه ذلك الأثر على غير قصد من المؤلفين له وممن قلدوهم أو نسجوا على منوالهم من كتاب الإيطاليين .

فالأديب الايطالى « بوكاشيو » « قلد » ألف ليلة فى كتابه المسمى بالصباحات العشرة ، وجعله قصصاً تروى فى عشرة أيام ، وكل يوم منها تروى فيه عشر قصص ، وأكثر هذه القصص تعريض بالمنافقين المنتسبين إلى رجال الدين ، وسخرية بذوى المقامات وما يستتر فى حياتهم الخاصة من الآثام والموبقات . ويقول المؤرخون بحق أن هذا الكتاب زلزل دعائم المجتمع فى عصره ومهد الطريق للانقلاب الخطير فى نظام الدولة ومعاهد الزعامة والسلطان .

ويشبه هذا الكتاب كتاب آخر ألفه الأديب الأسبانى « سرفانتيز » وسماه الدون كيشوت وقال أنه ترجمه من نسخة عربية ضاعت منه بعد الترجمة ولم يكن سرفانتيز جاداً فى دعواه ولا فى زعمه ان ذلك الكتاب مترجم من نسخة عربية ، ولكنه على التحقيق مستفاد من المطالعات العربية والأقاصيص المسموعة عن العرب ، وكثير من أمثاله يكاد أن يكون ترجمة حرفية للأمثال المتداولة بيننا إلى اليوم

ويلحق بالمؤلفات فى هذا النوع كتاب قديم فى تاريخ تأليفه ، حديث فى تاريخ ترجمته ، يمتاز باتساع الصدى فى الغرب كله من القارة الأوروبية إلى القارة الأمريكية ، ولا يضارعه فى سعة إنتشاره كتاب مثله من تأليف الشرقيين أو تأليف الغربيين .

ذلك الكتاب هو رباعيات عمر الخيام .

وليست رباعيات الخيام مؤلفاً إسلامياً بموضوعه ، ولكنها تحسب من المؤلفات الإسلامية لانتسابها إلى مؤلف مسلم فى بلاد إسلامية ، وقد

تلقاه الغرب كما يتلقى كتب الوحى المنزل ، وتتابعت الطبعات منه فى كل لغة ترجم إليها ، وبلغت النسخ المطبوعة منه مئات الألوف ، بل لعلها بلغت الملايين فى اللغات المتعددة ، وغالى بعضهم بنسخته من هذه الرباعيات فنقش كل صفحة منها نقشة فنية محتفلا بصناعتها ، ورصعها بالجواهر الملونة ، وجعلها فعلا ومجازاً ذخيرة من الذخائر النفيسة التى لا يفرط فيها من يقتنيها .

ولا يقال عن رباعيات الخيام أنها من المؤلفات التى خلقت فكرة جديدة ، أو وجهت الأفكار إلى اتجاه جديد ، ولكنها تعد من الكتب المعبرة عن زمانها ، وكأنما صادفت الغربيين وهم يلتفتون إلى الشرق ليهتدوا بهديه ، وجاءتهم على حين حيرة واضطراب وعجز عن النفاذ إلى حقيقة الوجود ومعنى الحياة ، فلم يجدوا فيها بغية العقول والضمائر ، ولكنهم أدركوا منها غاية حيلة المحتال الذى ليست له حيلة يطمئن إليها ، اللهم إلا أن يهرب من أفكار كلها شكوك ، إلى متعة نفسية أو حسية لا شك فيها ويقاس رواج هذا الكتاب بمقاييس شتى ، يكفينا منها فى هذا المقام اسم الجنرال عمر برادلى الأمريكى ، فإنه مسمى على اسم عمر الخيام .

على ان المؤلفات التى تنسب إلى حضارة كبيرة - تحسب لها آثار عامة غير آثار المؤلفات كتابا كتابا وقطعة قطعة وهكذا كان المؤلفات الإسلامية فى جملتها أثران شاملان : هما الحرية الفكرية وتوحيد لغة المعرفة ولغة الأمة . فقد رأى القراء الأوربيون كتباً تعالج كل مسألة ولا تتوقف عن البحث فى شأن من شئون العقل والمعرفة العامة ، ورأوا كذلك أن العالم المسلم يكتب للقارىء بلغة أمه وأبيه لا بلغة أجنبية عن فكره ولسانه وقد كان الأوربيون يعتقدون بحكم العادة أن كتابة العلم والحكمة لا تجوز بغير اللغة اللاتينية ، فلم يجترىء أدباؤهم على الكتابة بلغتهم إلا بعد قيام الحضارة الأندلسية إلى جوارهم وشيوع الكتب الإسلامية بين المتعلمين

ومن الحق أن نقول أن الحضارات جميعاً تأخذ وتعطى وتفيد وتستفيد ، والحضارة الإسلامية ، على هذه السنة الشاملة ، قد أخذت كثيراً وأعطت كثيراً ، ولكنها إذا وضعت فى الميزان كان مالها أكثر مما عليها ، وكانت لمؤلفاتها آثارها الكبرى فى إبانها ، وآثارها الباقية فى العصر الحديث .